

الباب الثاني عشر في ذكر تغليظها وزفيرها

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٦﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١، ١٠٢] .

وقال تعالى : ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١٧﴾﴾ إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ﴿١٨﴾﴾ [الفرقان: ١١، ١٢] .

وقال تعالى : ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَيُسَّ السَّعِيرُ ﴿١٩﴾﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٢٠﴾ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴿٢١﴾﴾ [الملك: ٦-٨] .

والشهيق : الصوت الذي يخرج من الجوف بشدة كصوت الحمار . قال الربيع ابن أنس : الشهيق في الصدر . وقال مجاهد في قوله : ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ قال : تغلي بهم كما يغلي القدر . وقال ابن عباس : ﴿تَمَيِّزُ﴾ تفرق . وعنه قال : يكاد يفارق بعضها بعضاً وتتفطر . وعن الضحاك : ﴿تَمَيِّزُ﴾ تفطر . وقال ابن زيد : التميز : التفرق من شدة الغيظ على أهل معاصي الله - عز وجل - غضبا له - عز وجل - وانتقاما له .

١ - (٩٥) وخرج ابن أبي حاتم من حديث خالد بن دريك عن رجل من الصحابة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من تقوّل عليّ ما لم أقل فليتبوأ بين عيني جهنم مقعداً » قيل : يا رسول الله ، وهل لها عينان ؟ قال : « نعم ، أو لم تسمع قول الله عز وجل : ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ﴿١٨﴾﴾ » ^(١) [الفرقان: ١٢] .

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٢٦٦٧/٨ (١٤٩٩٩) . وقد أورده ابن كثير في تفسيره ٣/٣١٠ . * وخالد بن دريك - كما في التقريب ٢١٢/١ (٢٤) - ثقة يرسل أ.هـ .

روى أبو يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس قال : إن العبد ليجر إلى النار فتشهوq إليه شهقة البغلة إلى الشفير ، ثم تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف ^(١) .
خرجه ابن أبي حاتم .

وقال كعب : ما خلق الله من شيء إلا وهو يسمع زفير جهنم غدوة وعشية ،
إلا الثقلين الذين عليهما الحساب والعذاب . خرجه الجوزجاني .

وفي كتاب الزهد لهناد بن السري عن مغيث بن سمي قال : إن لجهنم كل يوم
زفرتين يسمعهما كل شيء إلا الثقلين اللذين عليهما الحساب والعذاب ^(٢) .

وعن الضحاك قال : إن لجهنم زفرة يوم القيامة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي
مرسل إلا خر ساجداً يقول : رب نفسي نفسي .

وعن عبيد بن عمير قال : تزفر جهنم زفرة لا يبقى ملك ولا نبي إلا وقع لركبتيه
ترعد فرائضه يقول : رب نفسي نفسي ^(٣) .

وروى ابن أبي الدنيا وغيره عن الضحاك قال : ينزل الملك الأعلى في بهائه
وملكه ، مجنّبه اليسرى جهنم فيسمعون شهيقها وزفيرها فيندون .

وعن وهب بن منبه قال : إذا سيرت الجبال فسمعت حسيس النار وتغيظها
وزفيرها وشهيقها ، صرخت الجبال كما تصرخ النساء ، ثم يرجع أوائلها على
أواخرها يدق بعضها بعضاً ^(٤) . خرجه الإمام أحمد .

وفي تفسير آدم بن أبي إياس ، عن محمد بن الفضل ، عن علي بن زيد بن
جدعان ، عن أبي الضحى ، عن ابن عباس قال : تزفر جهنم زفرة لا يبقى ملك
مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه حول جهنم ، فتطيش عقولهم فيقول الله
- عز وجل : ماذا أجبتكم المرسلين ؟ قالوا : لا علم لنا ، ثم ترد عليهم عقولهم

(١) ابن أبي حاتم في تفسيره ٢٦٦٨/٨ (١٥٠٠٢) ، وابن كثير في تفسيره ٣/٣١١ .

(٢) انظر : الزهد لهناد بن السري ٢٧٩/١ (٢٤٩) . المكتبة الشاملة . الإصدار الثاني « كمبيوتر » .

(٣) انظر : حلية الأولياء ٣/٢٧٣ .

(٤) انظر : الزهد للإمام أحمد ص ٤٤٧ .

فينطقون بحجتهم وينطقون بعذرهم . محمد بن الفضل هو ابن عطية متروك ^(١) .
قال آدم : وحدثنا أبو صفوان ، عن عاصم بن سليمان الكوزي ، عن ابن جريج ،
عن عطاء ، عن ابن عباس : ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا
وَزَفِيرًا ﴾ [الفرقان : ١٢] المكان البعيد مسيرة مائة عام ، وذلك أنه إذا أتى بجهنم
تقاد بسبعين ألف زمام يشد بكل زمام سبعون ألف ملك ، ولو تركت لأتت على
كل بر وفاجر ، ثم تزفر زفرة لا يبقى قطرة من دمع إلا بدرت ، ثم تزفر الثانية
فتقطع القلوب من أماكنها تبلغ اللهوات والحناجر وهو قوله : ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ
الْحَنَاجِرَ ﴾ [الأحزاب : ١٠] . وعاصم الكوزي ضعيف جداً ^(٢) .

وقال الليث بن سعد عن عبيد الله بن أبي جعفر : إن جهنم لتزفر زفرة تشق
منها قلوب الظلمة ، ثم تزفر أخرى فيطيطون في الأرض حتى يقعوا على رؤوسهم ^(٣) .
خرجه عبد الله بن الإمام أحمد .

وروى أسد بن موسى ، عن إبراهيم بن محمد ، عن صفوان بن سليم ، عن
عطاء بن يسار ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، مثله .

وخرج أبو نعيم وغيره من رواية عبد الرحمن بن حاطب قال : قال عمر
- رضي الله عنه - لكعب : خوفنا ، قال : والذي نفسي بيده إن النار لتقرب يوم
القيامة لها زفير وشهيق ، حتى إذا دنت وقربت زفرت زفرة ما خلق الله من نبي
ولا شهيد إلا وجب لركبته ساقطاً ، حتى يقول كل نبي وكل صديق وكل شهيد :
اللهم لا أكلفك اليوم إلا نفسي ، ولو كان لك يا ابن الخطاب عمل سبعين نبياً
لظننت أن لا تنجو ، قال عمر : والله إن الأمر لشديد ^(٤) .

(١) انظر ترجمته في : تقريب التهذيب ٢/ ٢٠٠ (٦٢٦) ، وميزان الاعتدال ٦/ ٤ (٨٠٥٦) .

(٢) انظر ترجمته في : الجرح والتعديل : للرازي ٦/ ٣٤٤ (١٩٠١) ، وميزان الاعتدال : ٢/ ٣٥٠ (٤٠٤٧) .

(٣) الإمام أحمد في : الزهد ص ٤٤١ .

(٤) حلية الأولياء ٥/ ٣٧١ .

ومن رواية شريح بن عبيد قال : قال عمر لكعب : خوفنا ، قال : والله لتزفرن جهنم زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا غيره إلا خر جاثياً على ركبتيه يقول : رب نفسي نفسي ، وحتى نبينا محمد وإبراهيم وإسحاق - عليهم السلام - قال : فأبكي القوم حتى نشجوا ^(١) .

وفي رواية مطرف بن الشخير عن كعب قال : كنت عند عمر فقال : يا كعب خوفنا ، فقلت : يا أمير المؤمنين إن جهنم لتزفر يوم القيامة زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا خرَّ ساجداً على ركبتيه ، حتى إن إبراهيم خليله - عليه السلام - ليخر جاثياً ويقول : نفسي نفسي ، لا أسألك اليوم إلا نفسي ، قال : فأطرق عمر ملياً ، قال : قلت : يا أمير المؤمنين ، أولستم تجدون هذا في كتاب الله - عز وجل ؟ قال عمر : كيف ؟ قلت : يقول الله - عز وجل - في هذه الآية : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ^(٢) [النحل: ١١١] .

وكان سعيد الجرمي يقول في موعظته إذا وصف الخائفين : كأن زفير النار في آذانهم .

وعن الحسن أنه قال في وصفهم : إذا مروا بآية فيها ذكر الجنة بكوا شوقاً ، وإذا مروا بآية فيها ذكر النار ضجوا صراخاً كأن زفير جهنم عند أصول آذانهم .

وروى ابن أبي الدنيا وغيره عن أبي وائل قال : خرجنا مع ابن مسعود ومعنا الربيع بن خثيم ، فأتينا على تنور على شاطئ الفرات ، فلما رآه عبد الله والنار تلتهب في جوفه قرأ هذه الآية : ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ﴾ ^(٣) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقْرَّنَيْنِ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ^(٤) [الفرقان: ١٢، ١٣] فصعق الربيع بن خثيم فاحتملناه إلى أهله ، فرابطه عبد الله حتى صلى الناس الظهر فلم يبق ، ثم رابطه إلى العصر فلم يبق ، ثم رابطه إلى المغرب

(١) المصدر السابق ٣٦٨/٥ .

(٢) المصدر السابق ٣٦٨/٥ ، ٣٦٩ .

فأفاق ، فرجع عبد الله إلى أهله .

ومن رواية مسمع بن عاصم قال : بت أنا وعبد العزيز بن سليمان ، وكلاب بن جري ، وسلمان الأعرج ، على ساحل من بعض السواحل ، فبكى كلاب حتى خشيت أن يموت ، ثم بكى عبد العزيز لبكائه ، ثم بكى سلمان لبكائهما ، وبكيت والله لبكائهم لا أدري ما أبكاهم ، فلما كان بعد سألت عبد العزيز فقلت : يا أبا محمد ، ما الذي أبكاك ليلتئذ ؟ قال : إني والله نظرت إلى أمواج البحر تموج وتحيل فذكرت أطباق النيران وزفراتها فذلك الذي أبكاني ، ثم سألت كلاباً أيضاً نحواً مما سألت عبد العزيز فوالله لكأنما سمع قصته ، فقال لي مثل ذلك ، ثم سألت سلمان الأعرج نحواً مما سألتهما ، فقال لي : ما كان في القوم شر مني ، ما كان بكائي إلا لبكائهم رحمة لهم مما كانوا يصنعون بأنفسهم - رحمهم الله تعالى^(١).

(١) ابن أبي الدنيا في : الرقة والبكاء ٥٨/١ (٥٥) .